وقفات رمضانية

الصوم والإخلاص «2»

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

فإن الحديث اليوم إكمال للحديث الماضي، ألا وهو الإخلاص.

معاشر الصائمين: إذا أخلص المسلمُ صيامه لله، وقام به على الوجه الذي يرضي الله كان ذلك داعياً له لأن يخلص لله في شتى أموره، وكافة أحواله، وسائر أيامه، فَرَبُّ رمضانَ هو ربُّ سائر الشهور، والذي فرض الصيام هو الذي فرض غيرهَ من سائر الطاعات والقربات، والذي يُتَقَرَّبُ إليه بالصيام هو الذي يُتَقَرَّبُ إليه بسائر الأعمال.

وهكذا يفيد المسلمُ هذا الدرسَ العظيمَ من شهر الصوم.

ولقد وقف الحديث في الدرس الماضي عند أثر الإخلاص على الأفراد بخاصة، وعلى الأمة بعامة؛ فإليكم جملة من تلكم الآثار التي تعود بالخير على الأفراد والجماعات.

أيها الصائمون: الإخلاص يرفع شأن الأعمال حتى تكون مراقيَ للفلاح، فصغير الأعمال -بالإخلاص- يكون كبيراً، وقليلها يكون كثيراً.

والإخلاص هو الذي يحمل الإنسانَ على مواصلة عمل الخير؛ فمن يصلي رياءا، أو حياءا من الناس لابد أن تمرَّ عليه أوقاتٌ لا ينهض فيها إلى الصلاة، ومن يحكم بالعدل؛ ابتغاءَ السمعة، أو خوفَ العزل من المنصب قد تَعْرِض له منفعةٌ يرَاها ألذ من السمعة، أو يصادفه أمنُ العَزل-فلا يبالي أن يدع العدل جانباً.

ومن يدعو إلى الإصلاح ابتغاء الجاه قد ينزل بين قوم لايحظى بينهم إلا من ينحط في أهوائهم، فينقلب داعياً إلى الأهواء.

ومن يفعل المعروف لأجل أن تُرَدِّدَ ذِكْرَهُ الألسنةُ في المجالس أو الصحف قد يرى بعينه سبيلاً من سبل الخير في حاجة إلى مؤازرة؛ فيصرف عنه وجهه وهو يستطيع أن يمد إليه يده، ويسدَّ حاجته.

أيها الصائمون: الإخلاص الذي يقوم على الإيمان الصادق هو الذي يسمو سلطانه على كل سلطان، ويبلغ أن يكون مبدأً راسخاً تصدر عنه الأعمال الصالحة.

وهو الذي يجد له صاحبه حلاوة، فيسهل عليه أن يكون أحد السبعة المشار إليهم بقوله -صلى الله عليه وسلم- في الحديث الصحيح: «سبعة يظلهم الله بظله يوم لاظلَّ إلا ظله» إلى أن قال: «ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه».

حكى أشعبُ بنُ جبير أنه كان في بعض سكك المدينة، فلقيه رجل، وقال له: كم عيالك؟ قال: فأخبرته، فقال لي: قد أمرتُ أن أجْري عليك وعلى عيالك ما كنتَ حيًّا، فقلت منَ أمرك؟، قال: لا أخبرك، قلت: إنَّ هذا معروفٌ يشكر، قال: الذي أمرني لم يرد شكرَك.

قال أشعب بن جبير: فكنت آخذ ذلك إلى أن توفي خالد بن عبدالله بن عمر بن عثمان، فحفل له الناس، فشهدته، فلقيني ذلك الرجل، فقال: يا أشعب! هذا -والله-صاحبك الذي كان يجري عليك ما كنت أعطيك.

فهذا فاعلُ خير من وراء حجاب.

أيها الصائم: لعلك لا تجد أحداً يتصدى لعمل إلا وهو يدَّعي الإخلاص فيما يعمل؛ ذلك أن الإخلاصَ موطنُه القلبُ، والقلوبُ محجوبةٌ عن الأبصار.

وإذا وصفتَ أحدا بالإخلاص أو عدمه فإنما ترجع في وصفك إلى أمارات تبدو لك من أحواله الظاهرة.

ومن هذه الأحوال ما يدلك على سريرته دِلالةً قاطعة، ومنها ما لا يتجاوز بك حدَّ الظن.

وهذا موضع التثبت والاحتراس؛ ففي وصف المخادع بالإخلاص ووصف المخلص بالمخادع ضررٌ اجتماعيٌّ كبير؛ فإن وثقتَ بمجرد الظن لم تأمن أن تقضيَ على فاسد الضمير بالإخلاص؛ فيتخذه الناسُ موضعَ قدوة؛ فيستدرجهم من فساد صغير، حتى إذا ألِفوه نقلهم إلى فساد كبير.

وربما قضيت على طاهر القلب بعدم الإخلاص، فكنت كمن يسعى لإطفاء سراج، والناس في حاجة إلى سُرج تنير لهم السبيل.

أيها الصائمون: الإخلاص فضيلة في نفسه، ولا ينزل في نفس إلا حيث تنزل فضائلُ كثيرة، فالإخلاص يَمُدُّ قلبَ صاحبه بقوة؛ فلا يتباطأ أن ينهضَ للدفاع عن الحق، ولايبالي في دفاعه إذا أصابه ما أصابه.

والإخلاصُ يشرحُ صدر صاحبه للإنفاق في بعض وجوه البر؛ فتراه يؤثرها بجانب من ماله وإن كان به خصاصة.

والإخلاص يعلم صاحبَه الزهد في عرض الدنيا؛ فلا يُخشى منه أن يناوئ الحقَّ، أو يُلبسَهُ بشيءٍ من الباطل، ولو أمطر عليه أشياع الباطل فضةً أو ذهباً.

والإخلاص يحمل القاضي على تحقيق النظر في القضايا؛ فلا يفصل في قضية إلا بعد أن يتبين له الحق.

والإخلاص يوحي إلى الأستاذ أن يبذلَ جُهْدَه في إيضاح المسائل، وأن لا يبخل على الطلاب بما تسَعُهُ أفهامُهم من المباحث المفيدة، وأن يسلكَ في التدريس الأساليبَ التي تجددُ نشاطَهم للتلقي عنه.

والإخلاص يصون التاجر عن أن يخون الذي يأتمنه في صنف البضاعة أو قيمتها، ويحمل الصانع على إتقان عمله حسب الطاقة.

والإخلاص يردع قلم الكاتب عن أن يقلب الحقائق، أو يكسوها لونا غير لونها؛ إرضاءًا لشخص أو طائفة.

أيها الصائمون: هذه بعض مآثر الإخلاص الذي ينميه الصوم في نفوسنا؛ ويبعثنا إلى أن نخلص لله في جميع أعمالنا، وشتى أحوالنا.

فحقيق علينا أن نربي أنفسنا ومن تحت أيدينا على فضيلة الإخلاص، وأن نلقن ناشئتنا ماذا يناله المخلص من حمدٍ وكرامة وحسن عاقبة؛ لكي يَخْرُجَ لنا رجال مخلصون يقوم كل منهم بالعمل الذي يتولاه بحزم وإتقان.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

وأيقن بأنه تعالى لا يخيب من دعاه ورجاه، مع التزامه بآداب الدعاء أعطاء الله تعالى كل ما سأل وزيادة، ومن ظن بالله غير ذلك فبئس ما ظن، يقول الله تعالى في الحديث القدسي: (أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا دعاني) [رواه البخاري 7505 ومسلم 2675].

الدعاء في الرخاء من أسباب الإجابة

إذا أكثر العبدُ الدعاء في الرخاء فإنه مع ما يحصل له من الخير العاجل والآجل يكون أحرى بالإجابة إذا دعا في حال شدته من عبد لا يعرف الدعاء إلا في الشدائد. روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: (من سره أن يستجيب الله له عند الشدائد فليكثر من الدعاء في الرخاء) [رواه الترمذي وحسنه 3282 والحاكم وصححه 1/ 544].

ومع أن الله تعالى خلق عبده ورزقه، وأنعم عليه وهو غني عنه، فإنه تعالى يستحيي أن يرده خائبا إذا دعاه، وهذا غاية الكرم، والله تعالى أكرم الأكرمين.

روى سلمان رضي الله عنه فقال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إن الله حييٌّ كريم يستحيي إذا رفع الرجل إليه يديه أن يردهما صفراً خائبتين) [رواه أبو داود 1488والترمذي وحسنه 3556].

العبرة بالصلاح لا بالقوة

قد يوجد من لا يؤبه به لفقره وضعفه وذلته، لكنه عزيز على الله تعالى لا يرد له سؤالا، ولا يخيب له دعوة، كالمذكور في قول النبي صلى الله عليه وسلم (رب أشعث مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره) [رواه مسلم 2622].

أيها الداعي: لا تعجل

إن من الخطأ أن يترك المرء الدعاء، لأنه يرى أنه لم يستجب له ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (يستجاب لأحدكم ما لم يعجل فيقول: قد دعوت فلم يستجب لي) [رواه البخاري 6340 ومسلم 2735].

قال مُورِّقٌ العجلي: (ما امتلأت غضباً قط، ولقد سألت الله حاجة منذ عشرين سنة فما شفعني فيها وما سئمت من الدعاء) [نزهة الفضلاء ص 398].

وكان السلف يحبون الإطالة في الدعاء قال مالك: (ربما انصرف عامر بن عبد الله بن الزبير من العتمة فيعرض له الدعاء فلا يزال يدعو إلى الفجر)[نزهة الفضلاء 484]. ودخل موسى بن جعفر بن محمد مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فسجد سجدة في أول الليل فسمع وهو يقول في سجوده: (عظمُ الذنبُ عندي فليحسن العفو عندك يا أهل التقوى ويا أهل المغفرة، فما زال يرددها حتى أصبح) [نزهة الفضلاء 538].

الصيغة الحسنة في الدعاء

ينبغي - أيها المسلم - أن تقتفي أثر الأنبياء في الدعاء، سئل الإمام مالك عن الداعي يقول: يا سيدي فقال: (يعجبني دعاء الأنبياء: ربنا ربنا) [نزهة الفضلاء 621].

هذه أيام الدعاء

هذا بعض ما يقال في الدعاء، ونحن في أيام الدعاء وإن كان الدعاء في كل وقت، لكنه في هذه الأيام آكد، لشرف الزمان، وكثرة القيام. فاجتهد في هذه الأيام الفاضلة فلقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يشد فيها مئزره، ويُحيي ليله، ويوقظ أهله. كان يقضيها في طاعة الله تعالى، إذ فيها ليلة القدر لو أحيا العبد السنة كلها من أجل إدراكها لما كان ذلك غريباً أو كثيراً لشرفها وفضلها، فكيف لا يُصبّر العبد نفسه ليالي معدودة.

فاحرص - أخي المسلم - على اغتنام هذه العشر، وأر الله تعالى من نفسك خيراً. فلربما جاهد العبدُ نفسه في هذه الأيام القلائل فقبل الله منه، وكتب له سعادة لا يشقى بعدها أبداً، وهي تمرّ على المجتهدين واللاهين سواء بسواء، لكن أعمالهم تختلف، كما أن المدون في صحائفهم يختلف، فلا يغرنك الشيطان فتضيع هذه الأيام كما ضاع مثيلاتها من قبل.

لقد خص هذا الشهر العظيم بمزية ليست لغيره من الشهور وها نحن ننتظر أيام عشرة مباركة هن العشر الأواخر التي يمن الله تعالى بها على عباده بالعتق من النار، وها نحن الآن في هذه الأيام ننتظر العشر المباركات وهمساتها تقول:

ها أنا العشر الأواخر من رمضان قد أقبلت، ها أنا خلاصة رمضان، و زبدة رمضان، وتاج رمضان.

وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يحيي ليالي بالصلاة والذكر والقيام ويوقظ أهله شفقة و رحمة بهم حتى لا يفوتهم هذا الخير في ليالي - وكان يشدُّ مئزره من أجلي أي يعتزل نساءه في هذه الليالي لاشتغاله بالذكر والعبادة فقد ثبت في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا دخل العشر أحيا ليله وأيقظ أهله وشد مئزره.

ضاعفوا الإجتهاد في هذه الليالي، أكثروا من الذكر ... أكثروا من تلاوة القرآن ... أكثروا من الصلاة، أكثروا من الصدقات، أكثروا من تفطير الصائمين ... ففي صحيح مسلم أن رسول الله كان يجتهد في العشر ما لا يجتهد في غيرها.

فاجتهدوا لليلة العشر التي من قامها إيمانا و احتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه كما في البخاري من حديث أبي هريرة ...

فيا حسرة من فاتته هذه الليلة في سنواته الماضية، ويا أسفى على من لم يجتهد فيها في الليالي المقبلة...

وحتي تضمنوا قيام ليلة القدر والفوز بها اجتهدوا وشمروا في كل ليالي ... فحبيبكم صلى الله عليه وسلم يقول: (تحروا ليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان) رواه البخاري... وقد خصها الرسول في الأوتار فقال

تحروا ليلة القدر في الوتر من العشر الأواخر) رواه البخاري.

اتركوا لذيذ النوم، وجحيم الكسل، وانصبوا أقدامكم في جنح الليل، وارفعوا هممكم، وادفنوا فتوركم ونافسوا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم حتى يعلموا أنهم خلفوا وراءهم رجالا أصحاب تقيً وقيام...

قال تعالى (تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا)

فاغتنموني فإن ليلة القدر تستحق التضحية والاجتهاد..

ارفعوا عنكم التنازع والخصام فإنها سببٌ في منع الخير وخفائه ففي صحيح البخاري عن عبادة بن الصامت قال: خرج النبي صلى الله عليه وسلم ليخبرنا ليلة القدر فتلاحى «أي تخاصم وتنازع» رجلان من المسلمين، فقال: «خرجت لأخبركم بليلة القدر، فتلاحى فلان وفلان فرُفعت) رواه البخاري.

أسأل الله تعالى أن يتولانا بعفوه، وأن يرحمنا برحمته، وأن يستعملنا في طاعته، وأن يجعل مثوانا جنته، وأن يتقبلنا في عباده الصالحين، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

نحن في شهر كثيرٌ خيره، عظيم بره، جزيلة ُبركته، تعددت مدائحه في كتاب الله تعالى وفي أحاديث رسوله الكريم عليه أفضل الصلوات والتسليم، والشهر شهر القرآن والخير وشهر عودة الناس إلى ربهم في مظهر إيماني فريد، لا نظير له ولا مثيل.